دعوة القرآن إلى العقيدة في ضوء المعطيات المعاصرة

بقلم

د/ محمد سالم أبو عاصي

الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر

ورئيس قسم أصول الدين

كلية الشريعة والقانون — سلطنة عمان

(٦٨ — حولية كلية أصول الدين)

المقدمة

الحمد لله الملك الحق ، له دعوة الحق ، والصلاة والسلام على رسوله المبعوث رحمة للعالمين وسراجا للمهتدين ، وعلى آله وصحبه ومن ابتغى نهجه إلى يوم الدين .

أما بعد . . .

فإن الله حين أختار لعباده عمار هذا الكوكب المظلم دين الإسلام ، وجعله خاتمة الرسالات وتوج الرسالة الخاتمة بصفوة الخلق ، وأنزل فيما يتلى إلى البعث والنشور « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

أراد لهذه الشرعة القويمة والصراط المستقيم أن يكون هو مسلك العباد — من اهتدى منهم — مهما تطاولت الدهور وتفانت الأيام ، يسعدون به فى الدنيا ويفوزون به فى العقبى ، ولم يكن هذا ليتحقق لو بقيت الشريعة المنزلة قصراً على من أنزلت عليه ، فأنزل الله على نبيه « فاصدع بما تؤمر » ليتم أمر الله وتسرى إلى الناس هداية النور ، ثم ليكن من هؤلاء الذين استنارو بهذه الهداية من يحملها إلى من سواهم « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » فكان هذا لتحمل لرسالة الإنقاذ الأخيرة مهمة عظيمة الشأن جليلة القدر ، لذا فالدعوة من أعظم القربات وأجل الطاعات وأزكى الواجبات ، وعى هذه المعانى ذلك الجيل الفريد الذى رباه سيد الثقلين محمد ﷺ فانطلقوا إلى أرجاء المعمورة وأصقاعها يصدعون بما صدع فأصغى الزمان للرجل

منهم يقول : « أبعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيـــا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » هذا منطقهم حين تلقوا الوحى النازل فلامس شغاف القلوب وتغلغل برده إلى سرها وظلت قلوبهم تتلقى المعانى المتجددة من كتاب الله الذى لا يبلى على كثرة الرد فظل هداية لكل مستنير بنور الوحى ، راغب فى هداية العباد وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

ومن الجلى البين فى كتاب الله — بل لعل ذلك من نافلة القول — أنه أعتنى بالدعوة إلى العقيدة التى هى لب الإسلام وجوهره وجماع أمره دعوة قائمة على أسس متينة وبراهين مبينة تداعت أمامها حجب الشك وحواجز الأعذار ، وفى نسق يخدم الدعوة التى جاء بهـا القرآن فى كل زمان وعصر ليقيم أود البشرية وإعوجاجها عن الجادة حتى وإن كان ذلك فى الصخب المدوى الذى أحدثته معطيات معاصرة لم تكن موجودة حين نزول القرآن .

وفى هذا البحث سأعرض لـ : « دعوة القرآن إلى العقيدة فى ضوء المعطيات المعاصرة » مقسما البحث إلى نقاط خمس عامة :

الأولى : فى بيـــان أصل مادة الدعوة واستمدادها واستخدامها فى البيان الإلهى وبيان معنى الدعوة على اصطلاح اخترته مع توضيح ذلك الاصطلاح .

والثانية : فى تعريف العقيدة ، وإعطاء التصور عنها بشمول مختصر .

والثالثة : فى منهج القرآن فى تقرير العقيدة ، وتتضمن :

— أولا تعريف القرآن وبيان شىء من خصائصه .

— ثانيا : القرآن وبناء العقيدة ، انطلاقا من :

١ — نظرة القرآن العام إلى الكون .

٢ — نظرته الخاصة للإنسان .

والرابعة : فى العقيدة والمعطيات المعاصرة وفيها :

١ — الدعوة إلى الإيمان بالله فى ضوء المعطيات المعاصرة .

٢ — الدعوة إلى النظر فى الكون فى ضوء المعطيات المعاصرة .

٣ — الإنسان والقرآن فى ضوء المعطيات المعاصرة .

والخامسة : الأسس العلمية فى ممارسة الدعوة الإسلامية .

أسأل الله التوفيق والسداد والهدى والرشاد ، هو سبحانه من وراء القصد والله بكل شىء محيط وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د / محمد سالم محمد أبو عاصى

دعوة القرآن إلى العقيدة

فى ضوء المعطيات المعاصرة

(١)

قبل الخوض فى موضوع بحثنا أحب أن أقف أمام النقطتين التاليتين:

النقطة الأولى : مادة الدعوة (الدال والعين والحرف المعتل) أصل واحد هو أن تميل الشىء إليك بصوت وكلام يكون منك .

فكل استمالة لشىء هو دعوة له ، ومنه قالوا : داعية اللبن ، وهو مايترك فى الضرع ليدعو مابعده وهذا تمثيل وتشبيه .

وتداعت الحيطان ، وذلك إذا سقط واحد وآخر بعده فكأن الأول دعا الثانى . ودعوت الله . ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير .

ودعى المؤذن الناس إلى الصلاة . أى استمالهم إليها بدعوته ، ورغبهم فيما عندالله من الأجر العظيم .

والنبى داعى الخلق إلى الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا .

والدعوة اسم[1] من دعوت الناس إلى الشى ، والداعية الذى يدعو إلى دين أو فكرة والهاء للمبالغة .

ويقال: دعاه بداعية الإسلام: أى بدعوة الإسلام ويجوز أن تكون

---

(١) مصدر أو اسم مصدر .

داعية هنا مصدر بمعنى الدعوة كالعافية ، تقول عافانى الله معافاة وعافية ، وفى كتابه ﷺ إلى هرقل (أدعوك بدعاية الإسلام) أى بدعوته[1] .

وقد وردت هذه المادة فى البيان الإلهى بمعنيين اثنين :

أولها : الابتهال إلى الله بالسؤال . قال تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) النحل [٦٢] .

وثانيا : الحث على التوحيد وهداية الله ومافيها من خير ، قال تعالى : على لسان نوح : (قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا) وعلى لسان يوسف : (قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة وأنا ومن أتبعن) يوسف [١٠٨] .

النقطة الثانية : أن الدعوة يمكن أن تعرف إنطلاقا من هذا الأساس بأنها :

(استمالة من يتأتى خطابه بأساليب البيان المفهومة لديه للإيمان بالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا) .

إذاً فعناصر الدعوة باعتبار الشىء المدعو إليه ، نظراً لأنه لحمة الدعوة وسداها هى المتمثلة فى كلمات ثلاث :

— العقيدة .

— والشريعة .

— والأخلاق .

---

(١) أنظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة دعا بتصرف واختصار ، والمصباح المنير .

فهذه الكليات الثلاث مجتمعة جاءت واضحة جلية فى حديث جبريل ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ ماالإحسان ؟ الذى رواه البخارى من طريق أبى هريرة .

فكل ماجاء فى هذا الحديث راجع إما إلى العقيدة أوالشريعة أو إليهما معاً كما هو ظاهر من دلالته ، ومن شجرة الإحسان تمتد فروع الأخلاق المثالية ، فهى أثر لازم للعقيدة والشريعة معاً .

ومقصودنا فى بحثنا هذا بيان دعوة القرآن إلى العقيدة فى ضوء المعطيات المعاصرة ، ومن ثم فإنه يحسن بنا أن نعرف العقيدة التى يدعو إليها القرآن .

(٢)

تعريف العقيدة

أولا : العقيدة الحقة لا تتصور إلا بانعقاد القلب عليها انعقاداً جازما مطابقاً للواقع حسبما يفهم عنوانها اللغوى ذاته ، فضلا عن معناها العرفى.

ومضمونها من لدن آدم إلى سيدنا محمد ﷺ : (الإيمان بالله ووحدانيته وإتصافه بكل كمال يليق بذاته الأقدس ، وتنزيهه عن كل نقص لايليق به ، والإيمان بالملائكة والرسل واليوم الآخر والكتب المنزلة وبالقضاء والقدر) .

ثانياً : من الأهمية بمكان نؤكد على ماهو معروف لدى كافة المسلمين أن العقيدة الإسلامية من الثوابت التى أبرمت دلائلها بأدلة قطعية يقينية لاتقبل أى إحتمال حسبما أشرنا من قبل ومن ثم فإنه ليس لأحد أن يتصرف فى ثوابتها بتجديد أو تطوير أوإضافة أوحذف ، أماالذى يدخله التطور والتجديد فالدعوة إلى العقيدة أى آلياتها التى تختلف من زمان إلى زمان ومكان إلى مكان .

ولعل هذا مادعا البعض إلى التفرقة بين العقيدة - كما مر مضمونها - وبين علم العقيدة إذ علم العقيدة الوسيلة إلى إثبات العقيدة ومن ثم فقد عرفه البيضاوى وتبعه عضد الدين الإيجى بأنه : (علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها)[1] .

---

(١) انظر شرح الجرجانى على المواقف (١ / ١٤ و ١٥) وشرح المرعشلى على الطوالع ص [٤] .

فهو إذن علم تتقوم حقيقته بالبحث فى إثبات العقائد الدينية بحثا يتجه إلى الاستدلال العقلى لإثبات حقيقته ، كما يتجه كذلك إلى رد المطاعن التى تصوب نحو عقيدة الإسلام ، فهو بهذا لم يخرج عن منهج القرآن الكريم فى براهينه واستدلالاته فى إثبات العقيدة ودرء الشبه .

والسؤال الذى يقذف إلى الذهن الآن : ماهو المنهج القرآنى فى تقرير العقيدة والدعوة إليها ، وما مدى الاستفادة منه فى ضوء المعطيات المعاصرة ؟ .

(٣)

منهج القرآن فى تقرير العقيدة

قبل الحديث عن القرآن فى تقرير العقيدة أرى أن نذكر استعراضاً موجزاً عن حقيقة هذا القرآن وشىء من خصائصه وكيفية التعامل معه ؛ إذ القراءة المعاصرة تريد أن ترسخ فى أذهنة البشرية أنه نص بشرى سيال ، يقول كل شىء ولا يقول شيئاً

أولا : تعريف القرآن وبيان شىء من خصائصه :

اتفق علماء القرآن والأصول على بيان أن القرآن هو : القول أو الكلام المنزل على محمد ﷺ للإعجاز بسورة منه المنقول إلينا بالتواتر ، المكتوب فى المصحف المتعبد بتلاوته من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس .

فالقرآن نص إلهى ، وهذه الخصيصة الأولى للقرآن إذ غابت عن الناظر فيه قارئاً أو مفسراً أو مستنبطاً فقد القاعدة المنهجية الأولى للتعامل مع هذا الكتاب الكريم ، وهذا يستلزم مايلى :

١ — عند التعامل مع هذا النص القرآنى فهناك مسلمات مثل الاحتكام إلى دلالته اللغوية إذ يتحدث القرآن عن ذاته معرفا بها فيقول : (قرآنا عربياً غير ذى عوج) الزمر ٢٨ .

واللغة : هى إنتقال المعنى من ذهن المتكلم إلى ذهن السامع .

إذن فالكلام لايسمى لغة إلا إن تم العقد على مصطلحاته الدلالية بين المتكلم والسامع — هكذا يقول العلامة ابن جنى فى كتابه

« الخصائص »[1] . فاللغة فى الحقيقة عقد من العقود الدلالية يتم بين طرفين .

ومن القواعد المقررة عند علماء اللغة وأصول الفقه أنه يجب أن تفسر الكلمة بالمعنى المتبادر منها ، ولا يجوز صرفها إلى أى من الاحتمالات البعيدة إلا بعد الرجوع إلى قصد المتكلم الذى يكون قد أقام عليه من القرائن مايقطعه ويحيل سواه وهذا ماتجرى عليه القوانين كلها فإنها تخضع كذلك لهذه القاعدة اللغوية .

والخلاصة أن علوم اللغة بكل مايتبعها من الدلالات والألسنية إنما يبتغى منها الحصول على الضمانة التى لابد منها لربط الكلام بمراد المتكلم .

يقول الراغب الأصفهانى فى مقدمة تفسيره بضرورة خضوع المفسر للنص ، فلا يجافى منطق اللغة ، ولا ينأى عن دلالتها اللغوية وإلا خرج إلى التأويل المستكره[2] ومن ثم فلا يجوز اقتلاع الآيات القرآنية من مغارسها اللغوية التى ما تنزلت إلا وهى مكسوة بها ، وما فهمت فى عصر من العصور إلا على أساسها ، إذن فكل تفسير أو تأويل لابد من انطلاقه من بدهيته الأولى ألا وهى إلهية النص القرآنى .

٢ — عمومية النص القرآنى :

وهى عمومية تعنى أنه مطلق عن قيود الزمان والمكان ، فهو خطاب

(١) الخصائص ١ / ٤٤

(٢) مقدمة كتابه فى التفسير .

الله وكلمته الأخيرة إلى العالمين ، ومن ثم فليس خطابا لبيئة التنزيل أو من كان زمن بلاغ الرسالة فحسب كما يدعى أصحاب تاريخية النص .

إن هذا النص الإلهى لا تتقيد أحكامه ولا آثاره بالحياة المعاصرة لنزوله ، فكل قول بنسبية أحكامه يعد خروجاً على حقيقة النص القرآنى .

وعلى الرغم من وضوح هذا الذى نقوله فإنا لنشهد هجمة شرسة على القرآن تحت ستار ما يسمى بالقراءة المعاصرة ولوجاز إخضاع النصوص التاريخية لما يسمى بالقراءات المعاصرة ، إذن لاختفى التاريخ واندثر ، ولانقطعت صلة الحاضر بالماضى .

إن الغاية المقصودة من القراءة المعاصرة هى تفريغ القرآن الكريم من مضمونه الاعتقادى والتشريعى والأخلاقى ، وتحويله إلى وعاء فارغ يصب كل عصر فيه قراءته غير البريئة .

ويدور كلام دعى الخيوط الخفية التى ظاهرها القراءة المعاصرة ، وباطنها المكر الصهيونى على هذا النهج .

إن مجموعة الوثائق الصادرة عن الهيئة اليهودية المعروفة بـ (النورانيين) أو باسم حكماء صهيون ، والتى تعد المصدر التاريخى الأول لما يسمى اليوم « بروتوكولات حكماء صهيون » تتضمن هذه الوثائق توصية تحذر من مجابهة الأديان عامة والإسلام خاصة بأى حرب مباشرة معلنة ، وتنصح بدلا من ذلك بتفريغ النصوص الدينية من معانيها الثابتة ثم ربطها بمعان وأفكار أخرى من شأنها أن تتعارض مع رسالة الدين وأهدافه ، وأن تبدد الرؤية إليه تسير سبيل الإعراض عنه والانفلات منه[1] .

(١) أنظر كتاب الدنيا لعبة إسرائيل لكولونيل وايم كار ص ٢٥ ، وما بعدها .

هذا هو الدافع إلى شعار القراءة المعاصرة المجاوزة لضوابط اللغة، وأصول الشريعة الإسلامية.

٣ — النص القرآنى كله قطعى الثبوت، وبعضه قطعى الدلالة والبعض الآخر ظنى الدلالة، والقول بظنية دلالته كلها خلاف التحقيق، وهذا يقتضى أنه اكتمل فى حياة الرسول ﷺ، فلا سبيل إلى الزيادة فيه أو النقصان منه.

وبما أنه قطعى الثبوت فإنه يثبت العقيدة التى لاتثبت إلا باليقين المتولد من النص قطعى الثبوت والدلالة معاً، أو من دلالة صريح العقل.

ثانياً: القرآن وبناء العقيدة:

سبق أن بينا أن مرتكزات الدعوة الإسلامية تتمثل فى كليات ثلاث العقيدة والشريعة والأخلاق.

والعقيدة كما يقول الدكتور الدريني: عنصر جوهرى فى التشريع بوجه عام.. ضمانا لثبات الخلفية الأخلاقية للنشاط الإنسانى بوجه عام، وهذا السياج الأخلاقى الذى يجعل العقيدة متغلغلة فى البناء التشريعى الإسلامى كان السر فى حيويته الممتدة فى الزمان والمكان)، ثم يقول: (والعقيدة فى الإسلام ليست مجرد معنى ميتافيزيقى لاصلة له بأصول المعايش والنشاط الحيوى والتدبير السياسى، فقد جعل الإسلام العقيدة عنصراً أصيلا فى التشريع)[٢].

(٢) أنظر: دراسات وبحوث فى الفكر الإسلامى (٢/ ٥٦٩) دار قتيبة، بتصرف واختصار.

والقاعدة الكلية والتى منها ينطلق المنهج هى أن كل ما فى القرآن من موضوعات وبحوث، إنما هو متفرع عن المقصد الأساسى الكلى وهو دعوة الإنسان إلى أن يكون عبداً لله بالسلوك الاختيارى كما قد فطر على العبودية له بالواقع الاضطرارى[١].

من هذا المنطلق ومن تفاصيله الدقيقة يتكون نسق ذهنى محدد للعقيدة التى منها ينطلق الإنسان فى تحديد مناهجه وتقويم سلوكه، إذ الخلو من العقيدة فقر فى الشعور بالحياة والقدرة على العمل والشذوذ عن الخلق السوى، فيجب استسلام الضمير للعقيدة الصحيحة المنزلة من عند الله، فعجز الإنسان عن استلهام عقيدته آية الفناء وإفلاس الحياة، فإذا كان للإلحادى أو الملحد عقيدة إلحاده فخليق بالإنسان العاقل أن يبحث عن عقيدة خالية من التشويه والتعقيد وتعطيل الفكر، وذلك لا يوجد إلا فيما زودنا به الإسلام متمثلا فى كتاب ربنا وسنة نبينا من عقيدة تملأ فراغ النفس وتفيض على الإنسان بما يستطيع أن يواجه به مشاكل الحياة، إذا لابد للإنسانية لكى تصطبغ بالعبودية فى الجسد والكيان، أن تتعرف على دلائل وجود هذا الإله الخالق ووحدانيته، وأن يعرفوا مهمتهم فى هذه الحياة، ومصيرهم بعد الموت. وما الذى ينتظرهم؟

ومن غيبة هذه المعرفة كان منشأ الحيرة عند الإنسان:

من أين أنا؟

وماذا أفعل فى هذه الحياة؟

(١) البوطى: محمد سعيد رمضان — الإسلام ملاذ كل المجتمعات — دار الفكر ص ٣٦

وماذا يكون فى الغد القريب ؟

إن كل الفلسفات الأرضية لم تستطع أن تجيب عن هذه الأسئلة التى حيرت الإنسانية قديماً وحديثاً . فإذا أرادت الإنسانية أن تخرج من حيرتها هذه فلا بد لها من الرجوع إلى العقيدة الإسلامية فهى التى تجيب عن هذه الأسئلة ، وذلك من خلال الإيمان بالله ووحدانيته وكمال قدرته .

وإذا أصغينا إلى البيان الإلهى فى القرآن الكريم نجده يعرض من كليات العقيدة وحدانية الله عزوجل ، إذ وحدانيته حقيقة أزلية أبدية والمتأمل فى طرح القرآن لهذا الأصل الكلى قلما يجده عارضا للدليل على وجود الله ، إذ وجوده تعالى يكاد يكون بدهياً مفروغاً منه أما الشك فى وجوده أو إنكاره فلم يعرف إلا فى القرون الأخيرة ، أما فى ما مضى فالبشرية متفقة على حتمية وجوده إله ، وإنما الخلاف فى تصوره ، ومع ذلك فإن منهج القرآن فى تقريره لعقائده ينطلق من منطلقين اثنين :

١ — نظرته العامة إلى الكون .

٢ — ونظرته الخاصة إلى الإنسان .

نظرة القرآن العامة إلى الكون

أما حديث القرآن عن الكون فحديث طويل متعدد الزوايا ، فيعرض الصورة شاملة بكلمة جامعة ، تارة « ملكوت السماوات والأرض » أو ما يعادلها من التعابير فى القرآن ، وتارة مفصلة ، كقوله تعالى فى سورة النحل : « خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم والخيل والبغال والحمير اتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية القوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون » النحل [٣ — ١٧] .

وقال تعالى : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل

الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » الأنعام [٩٥ — ٩٧] .

ففى هذه الآيات وفى غيرها من الآيات الدالة على وجود دلائل الله فى الآفاق وفى الأنفس يلفت القرآن نظرنا إلى وجود الله المكون لهذا الكون ، وذلك من خلال حديث يمزج بين أمرين :

الأول : فقر العالم إلى الله وقيامه به واستمداده الوجود منه ، إذ من المستحيل تخلق الكون من غير خالق وانتظامه من غير منظم .

والأمر الثانى : أن هذا الخالق المدبر واحد فى ذاته لا شريك له ولا ند له ، كل شىء هالك إلا وجهه ، إن فالق الحب والنوى فى الحقول والحدائق ومنشىء الثمرات اليانعات والنخيل الباسقات هو هو فالق الإصباح وناشر نوره العريض فى آفاق السماوات والأرض .

كما يلفت القرآن نظرنا كذلك من خلال هذه الآيات الكونية إلى برهان الحكمة أو ما يحلو للبعض أن يسميه ببرهان العلة الغائية ومن المقرر فى كتب العقائد والكون كذلك أن العلل الغائية لا تصدر إلا عن قصد وتدبير .

وينطلق القرآن مرة أخرى من الكون لكن من زاوية أخرى وهى منافع الكون واستثمارها ، فالكون كله من سمائه إلى أرضه ، من عرشه إلى فرشه مسخر لخدمة الإنسانية مذلل لها ، قال تعالى فى بيانه الإلهى : « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » [لقمان ٣٨] « وجعلنا الليل والنهار آيتين

فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا » [الإسراء ١٢] .

وقال تعالى : « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » [يس ٧٣] .

وقال : « وهو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » [الملك ١٥] « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ، قليلا ما تشكرون » [الأعراف ١٠] .

فالذى يدقق النظر فى هذه الآيات وفى كلمات التسخير والتمكين والتذليل بالذات يجدها معبرة عن أبلغ معانى الخضوع والانقياد والإخدام ، فهى تقرر بأبلغ وسائل التعبير والبيان بأن الله تعالى أخضع المظاهر الكونية المختلفة للإنسان أيما إخضاع ، هذا قرار اللغة العربية فى هذه التعبيرات وأن الله قد أذل هذه المكونات لمعرفة الإنسان ، ثم أمكن القدرة الإنسانية من التحكم بها والتطوير لها ، واستخراج الجديد من وجوه الفائدة منها ، إذ إنك لا تقول : إن فلاناً تمكن من كذا ، إلا إذا امتدت قدرته إلى التحكم بها ، واستغلاله على الوجه الذى يريد ، فالآيات تنص إذن بدلالة لا تقبل الريب ، على أن الله أخضع هذه المكونات لكلتا القدرتين : العضلية والفكرية فى الإنسان ، وأذلها لكثير من أماله ومطامحه . ألا ترى إلى حكمة [ذلولا] فى قوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا » وهى صيغة مبالغة بمعنى مذللة : كيف صورت الأرض بكل ما فيها وكأنها مائدة وضعت بين يدى

الإنسان بكل ما فى باطنها من ذخر ، وبكل ما على ظاهرها من خير ليعمل فيها قدرته العضلية ومواهبه الفكرية ، وليستخرج منها كل ما يطمح إليه من أسباب السعادة والنفع .

وإلى كلمة [ذللناها] من قوله : « أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون » كيف صورت إخضاع الله سبحانه وتعالى هذه الحيوانات المختلفة لحاجات الإنسان ومنافعه . وذلك على الرغم مما تتمتع به من قوة تجعلها تستعصى على الخضوع والانقياد ، لو أن الله أمكن من استعمال هذه القوة فى مجابهة الإنسان . . !!

وأنت لا تستطيع أن تتصور المدلول العظيم لكلمة [ذللناها] فى هذه الآية إلا عندما تعلم أن معظم هذه الحيوانات كالبغال والأبقار ، والخيول تتمتع بقوة تفوق التى يتمتع بها كثير من السباع الهائجة الضارية ، ولكنها تنقاد مع ذلك للطفل الصغير ، وتخضع للزمام الذى يقودها الإنسان منه إلى حيث يشاء (١) .

---

(١) البوطى محمد سعيد رمضان منهج الحضارة الإنسانية فى القرآن الكريم . ص ٨٦

نظرة القرآن إلى الإنسان

وبعد نظرة القرآن إلى الكون انطلق بنا إلى العالم الأصغر [الإنسان] إذ هو المنتفع بنعمة الله وآلائه فى هذا الكون الفسيح .

جاء القرآن ليعرف الإنسان على ذاته ، ويجيب على أسئلته التى كانت منشأ حيرته .

من أين أنا ؟

وما وظيفتى فى هذه الحياة ؟

وما المصير الذى أصير إليه ؟

يقرر القرآن الكريم فى جوابه عن هذه الأسئلة حقيقتين اثنتين :

الحقيقة الأولى : إن الإنسان فى كينونته الذاتية ، أى من حيث ذاته عبد مملوك أصله الأول من تراب وسلالته من ماء مهين ، والشأن فيه طال العمر أو قصر أنه عائد إلى خالقه وموجده : الله جل جلاله ، قال تعالى : « فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا » [الحج ٥] .

وقال تعالى : « قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره » [عبس ٢٠] وغير ذلك من الآيات .

الحقيقة الثانية : إن الإنسان هو ذلك المخلوق المكرم على سائر

المخلوقات الأخرى أسجد الله تعالى له الملائكة متمثلا ذلك فى أبيه آدم ، ومتعه بنعمة العقل والفكر ومن هنا جعله الله خليفته فى الأرض وحمله الأمانة وذلك لما ركب فيه من صفات نادرة استأهل بمقتضاها أن يكون مكوماً خليفة لله فى الأرض قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » [الإسراء ٧] .

وقال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » [البقرة ٣٠] .

« إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » [الأحزاب ٧٢] .

وهذه الصفات التى يتمتع بها الإنسان ليست من نشأته ولا إبداعه ، إنما هى فى حقيقتها ظل وفيض من الأنوار العليا أنعم الله بها على هذا المخلوق لكى يستطيع القيام بها فى أداء رسالته .

هذا هو الإنسان الذى كرمه الله ، وأعطاه من فيض صفاته الحياة والإرادة ، والعلم والقدرة وغيرها ليتمكن بما آتاه من القيام بما كلفه تعالى به ، وأنه مستخلف فى الكون عن خلقه وخالق الكون معاً ، فإذا أحس الإنسان افتقاره وحاجته لخالقه وعبوديته له واستمداد سلطانه وعلمه منه كان فى أعلى مكانة من الوعى والإدراك والأخلاق .

هذه نظرة القرآن الكريم التى تنطلق بالإنسان من نفسه إلى الكون الفسيح المحيط به تفكيراً وشعوراً وعملا فى وعى شامل ،

فتضع العقل الكاشف المدرك والحواس الإنسانية المعينة له والنشاط العملى الهادف لنفع عباد الله فى الأرض والابتغاء من فضله ، والعلم المعين على بلوغ الأهداف الخيرة النيرة ، والروابط الاجتماعية بدءاً من الأسرة حتى الدولة ثم الإنسانية فى نطاق التعاون الهادف لعمارة الأرض وكذلك سائر القيم من الغزيرة والزينة والجمال .

نضع كل واحد من هذه القيم فى موضوعها من منظومة القيم المنبعثة من العقيدة الأم ، لا تطغى واحدة على الأخرى بل تلتقى وتتعاون وتتوازن بالقسط لتنتهى بمجموعها إلى الله خالقها وخالق الإنسان دون أن يكون عبداً لأحد إلا الله .

(٤)
العقيدة والمعطيات المعاصرة

أعود فأذكر مرة ثانية إلى أن الدعوة إلى العقيدة فى ضوء المعطيات المعاصرة إنما يكون فى علم العقيدة وآلياتها لا فى العقيدة ذاتها ؛ لما سبق بيانه .

أولا : من أين ننطلق فى دعوتنا إلى العقيدة الإسلامية فى ضوء الواقع المعاصر ؟

والجواب : ننطلق من حيث ما انطلق القرآن الكريم نفسه ، وهو المنطلق الكلى الثابت الذى يأخذ بالإنسانية إلى الإيمان بالله وعبادته وحده اختياراً دون إكراه ، وأن يترقب الإنسان للغد القريب الذى لا يدرى وقته إلا الله العليم الخبير .

إذن فالمنطلقات القرآنية وإن تعددت ، إنما يتجه كلها إلى هدف واحد هو الإيمان بالله عز وجل ، ثم الإيمان بالمعاد بناء لهذا الثانى على الأول .

١ — الدعوة إلى الإيمان بالله فى ضوء المعطيات المعاصرة .

وتطبيق ذلك المبدأ الكلى القرآنى فى دعوتنا إلى العقيدة فى ضوء واقعنا المعاصر أن نخاطب الإنسانية مجتمعة باعتبارها الكلى والذى يندرج فيها الجاحدون والمتهاونون على حد سواء بخطاب برهانى قائم على التلازم بين الإيمان وأثره فى حياة الإنسانية من سعادة فردية واجتماعية ، حيث إن الإيمان بالله حقا يفضى إلى سعادة البشرية وذلك ببيان :

— ما يثمره الإيمان منطقيا فى نفس الإنسان وروابطه الاجتماعية وعلاقاته البيئية الكونية .

— وما أثمره الإيمان بالفعل وذلك بعرض التجربة التاريخية للحضارة الإسلامية .

وفى كلا الأمرين على الداعية أن يعرض مقارنة بين ما يحدث الإيمان بالله فى النفس الإنسانية من شهود وطمأنينة وسعادة وما يحدثه الجحود من خراب وبوار فى تلك النفس الإنسانية ، وفى علاقتها بالأسرة والمجتمع والدولة والكون الكبير ، وذلك كله عن طريق الإقناعات المنطقية والعقلية ، واستشهاداً بالتاريخ إذ التاريخ ليس ملكا لأحد ، إنما هو ملك للزمن الذى وجد فيه ، واستشهاداً كذلك بما آل إليه الواقع الراهن فى الحياة الإنسانية من خلال أزمات وأزمات تعانيها الحضارات التى قامت على الكفر بالله .

إن ما أحدثته نظم الحداثة وما بعد الحداثة من سلخ الإنسان من اللغة باعتبارها وعاء ثقافياً والأسرة وعاء اجتماعياً والدولة سياجاً نظامياً ، وفوق ذلك من كفر بمنهج الله عز وجل لأكبر دليل على حاجة البشرية فى وقتنا الحاضر إلى العودة إلى رب الأرض والسماء ، ولله در أديب العربية الأكبر إذ يقول : (الإيمان أكبر علوم الحياة يبصرك إن عميت فى الحادثة ويهديك إن ضللت عن السكينة ، ويجعلك صديق نفسك تكون وإياها على المصيبة لا عدوها تكون المصيبة وإياها عليك ، وهو أثبت جنود الدفاع حيث لا يكون مال ولا علم ولا سلطان إلا فر ، ويرد قدر الله إلى حكمة الله فلا يلبث ما جاء أن يرجع ، وتعود النفس راضية بقدر الله كأنما يقع فيها يقع أمامها)[1] .

---

(١) الرافعى مصطفى صادق وحى القلم ١ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

وإنا لنحسب أن خطاب الدعوة القائم على صلة التلازم بين الإيمان وأثره، والقائم كذلك على المقارنات والإقناعات إذا ما كان محكم البيان استدلالا وتمثيلا ومقارنة فيما يتوجه به إلى العقل والوجدان فإنه سيكون رافداً استدلالياً فاعلا فى تحريك الناس نحو ربهم، وربما يكون هذا الخطاب أنفع من الخطاب القائم على الاستدلال العقلى المجرد فقط.

٢ — الدعوة إلى النظر فى الكون فى ضوء المعطيات المعاصرة.

دعوة القرآن إلى النظر فى الكون فى ضوء المعطيات المعاصرة إنما تتمركز فى أمرين:

الأول: دعوته المسلمين إلى قراءة الكون المفتوح كقراءتهم القرآن المسطور.

والثانى: دعوته غير المسلمين إلى النظر إلى الإبداع الكونى الذى أبدعه من الصفر المبدع الحكيم الله جل جلاله.

إن أى رؤية منهجية للدعوة الإسلامية ستؤول بنا إلى القرآن الكريم وما رسمه للبشرية فى الدعوة إلى ترسيخ العقيدة فى الكيان الإنسانى، وهذه المنهجية تتمثل فى قراءتين اثنتين: قراءة الوحى وقراءة الوجود، حيث إن الوحى والوجود معا من لدن الله هـذا من أمره وذاك من خلقه، (إلا له الخلق والأمر) وعندما أمرنا القرآن بالتعرف على الحق أمرنا بالقراءتين: (اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم) [العلق ١-٢] أى قراءة الوجود والواقع حولنا، وقراءة الوحى الذى علم بالقلم.

فالقرآن يأمر بالقراءتين حيث تفسر كل قراءة الأخرى، وحيث التطابق التام لوحدة المصدر وهو رب العالمين، فلا تناقض بين الكتابين، الكتاب المسطور والكتاب المنظور، ولم يقع تحريف ولا تخريف كما

حدث عند السابقين من أهل الكتاب عندما فارق الكتاب المسطور الكتاب المنظور فوقع الخصام النكد بين الدين والعلم، أو بين الوحى والوجود.

إن الاقتصار على قراءة الوحى فقط، والدعوة إليه فقط خطر عظيم وسير بالأمر على إحدى رجليه دون الأخرى، وإن فصل الوجود عن الوحى والاكتفاء به خطر عظيم بل أعظم من الأول. والدعوة إلى العقيدة لا تقوم إلا على القراءتين، وسعادة الإنسان لا تتم إلا بهما.

والخلاصة إذن أن الكون يدل على الله، والوحى يقود إليه، والعقيدة الصحيحة تستمد حقيقتها من الدلالتين معاً من دراسة الكون وتدبير الوحى.

ومما يساعد على دعوة النظر فى الكون الآن وفى ضوء المعطيات المعاصرة. ذلك التحول الذى حدث فى مفهوم العلم فى العالم الغربى، إذ لم يعد العلم قاصراً على المادة فقط كما كان الحال إلى القرن السابع عشر، فى القرن العشرين تغير مفهوم العلم عند كثيرين من علماء الغرب ومفكرية مثل أينشتين، وهايزنبرج (Hisenberg) ويوجين فيغر إذ ذهب هؤلاء وغيرهم إلى أن المادة غير أزلية، وأن العلم لم يعد محصوراً فى التجارب المادية، ومن هنا فإن مشكلة الجسر المقطوع بين المنكرين لما وراء الكون توشك على الانتهاء[1].

من هذا المنطلق يستطيع الدعاة مخاطبة العقلاء بأن للكون غاية وحكمة — وأنه لم يكن عبثاً بل هو مخلوق لخالق حكيم، بهذا المنطق يمكن مخاطبة المنكرين لوحدانية الله أو الكافرين به أو الجاحدين لوجوده انطلاقا من التسلسل المنطقى المنطلق من القاعدة العلمية من

(١) البوطى محمد سعيد رمضان أنظر أوروبا من التقنية إلى الروحانية. ص ١٢.

سنن الكون وتطوره للدلالة على خالقه ومبدعه جل جلاله وأن هذا المبدع العظيم مفارق للإنسان وللكون نفسه فالرب رب والعبد عبد وهناك فارق بين المخلوق والخالق .

٣ — الإنسان والقرآن فى ضوء المعطيات المعاصرة .

بعد إن إنتهينا من بيان الصورة العلمية المعقولة والصورة الدعوية عن النظر فى الكون ومن انتهائها إلى خالق الكون وبيان أن ماجاء به القرآن فى جملته من حديثه عن الكون جملة وتفصيلا وأنه مسخر ومذلل للإنسانية ، وبيان القرآن كذلك لحقيقة الإنسان وكينونته الذاتية وأنه مخلوق مكرم مستخلف للقيام بأحكام الله فى الأرض . يجمل بنا أن نعرض للصورة المقابلة المتمثلة لقيمة الإنسان فى الغرب .

أما قيمة الإنسان فى عالم الغرب فإنما ينظر إليه من خلال ميزان مادى مجرد . . أجل فالإنسانية هناك تعيش تحت سلطان ميكانيكى مجرد ، ويتحركون بالضرورة تبعاً لها ، ومن فقد غدوا تحت سلطان هذا الواقع قطع غيار يمكن استبدالها داخل آلة ضخمة هى الدولة . . بل الإنسان فى منظور الصراعات السياسية مجرد رقم رياضى فى حساب اعتبارى . . إنه ليس إلا كسراً من وحدة مقسمة إلى عدد من الملايين ، ولا تتمثل قيمة هذا الكسر أو الرقم إلا فى المصالح المادية

إن العقل المادى فى الغرب يدد كل شىء بما فى ذلك الإنسان أى أى إنه يقوم بتفكيك الإنسان إلى عناصر مادية أولية .

يقول كاباتيش — وهو مفكر استنارى — : إن الدماغ يفكر كما تهضم المعدة وكما تفرز الكبد الصفراء .

إن الإنسانية فى عالم الغرب تعيش اليوم سجن حضارة مادية جانحة عن الفطرة الربانية . ولا مخلص لها من سجنها هذا إلا بالرجوع إلى جذع الإيمان

فهو الذى يعيد الإنسان بعد تفكيكه ، والأسرة بعد تفرقها وهو الذى يمد القلب بغذائه العاطفى ، ويروى ظمأه الوجدانى وأشواقه العلوية .

يقول الكاتب الرومانى (كونستنتان جيورجيو) فى روايته التى سماها (الساعة الخامسة والعشرون) تحدث فيها عن المجتمع الآلى فى الغرب وعن أن الآلة عما قريب ستقيد الإنسان ، وأن الناس فى الغرب يتحولون إلى جيوش من الأرقاء المستعبدين تحت سلطان الآلة ، ثم قال : ولكن هذا الاكتساح الآلى لحرية الإنسان وكرامته سيعقبه اعتراف بالمواهب الإنسانية ، وسيشرق النور العظيم من الشرق من آسية . . ولكن ليس من روسية إن الروس قد أنحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائى يكتسح رجل الشرق المجتمع الآلى إنه لن يضىء بنور النيون خطوط الفكر والقلب إن رجل الشرق سيجعل من نفسه سيدا للآلات والمجتمع الآلى .

يقول أستاذنا العلامة البوطى : وأنا أؤيد كاتب الرواية فى أن الإنسان سيتحرر عما قريب من سيادة الآلة والمادة كما قال . . ولكن أخالفه فى أن نور هذا التحرر سينبثق من الشرق ، وذلك لأن الشرق مكبل بعوامل التخلف . . وأخطرها ما يعانيه من التجزؤ الذى تحول إلى تنابذ . . إن النور الذى يشير إليه جيورجيو سينبثق حيث تجرى التجربة الفاشلة التى ظهر فشلها .

والقاعدة المنطقية تقول : « التجربة الفاشلة تحمل بذور نقائضها » وإن الإرهاصات الدالة على ذلك كثيرة ، وأهمها هذا المنعطف الهام الذى يمر به الغرب اليوم فى طريقه إلى اعتماد منظور جديد للعلم يتسع لمزيد من حقائق الكون ، وينظر إلى العقل ، على أنه فاعل حيادى بعد أن ظل دهراً طويلا ينظر إليه على أنه منفصل تابع للمادة وحكمها .

من أجل هذا سينبعث الإسلام انبعاثه المرتقب الجديد من الغرب ،

بل من الغرب أولا ، هذا ولن يكون إقبال الإنسان الغربى إليه عن رغبة فى استغلاله كما هو شأن الذين يتقنون فن المناورات ، وكما أقبل الرومان يوماً إلى المسيحية ، وأقبل يهود (سولاتيك) إلى الإسلام ، فى أواخر الخلافة العثمانية ، بل سيكون التجاؤهم إليه بدافع من البحث عن هويتهم الضائعة وأشواقهم التائهة .

وبتعبير آخر : إن انعطافهم إليه سيكون من قبيل عودة الغائب إلى أهله بعد طول ابتعاد وشرود .

وسيكون العامل السحرى الذى ينقلهم من أقصى أفاق الإباحيـة والتفلت إلى منتهى حدود الانضباط والتقيد ، دون أن يشعروا بضيق أو تأفف عاملا واحداً لاثانى له ، هو الحب وسيكون مصدر هذا الحب خيبة آمالهم فيما كانوا يحسبونه سر سعادتهم ، من متع الحياة وأهوائها وشعورهم بالنشوة الواضية التى تنبعث من أفئدتهم على غير توقع ، لدى أول التفاته صادقة منهم إلى الله .

إن الظمآن الذى ابتلى من الدنيا بسراب إثر سراب ، وقاده الظمأ القتال من خداع إلى خداع ، ثم توقف فجأة على يد حانية رفعت إلى فمه وأسقته أبرد شراب عذب فرات ، لايد أن يعشق اليد وصاحبها ولاوالله ما انتهى واحد من هؤلاء الغربيين من رحلته المضنية إلى محراب العبودية لله عزوجل ، ورأى فى ذلك المحراب ذاته وذاق نشوة الإقبال إلى الله والاصطلاح معه بعد طول ضياع إلا وكان حاله مع الله مثل حال ذلك الظمآن التائه مع تلك اليد الحانية التى انتشلته من تيهه وأروته من ظمئه .

كان ينتقل من تجربة مضلية إلى أخرى ، ويتجاوز الكؤوس إلى الشذوذ ثم إلى أفانين المخدرات ، دون أن يجد من يتولى أمره ويشرح صدره ويسرى عنه همه حتى إذا رأى الله بعين بصيرته ومشاعر قلبه ، سمع النداء الإلهى يجذبه إليه قائلا « إنما وليكم الله » المائدة آية : ٥٥ .

ولما استسلم لنشوة هذا الخطاب سمعه يقول : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم » محمد آية : ١١ .

وما كاد يستيقظ من نشوة هذا الكلام حتى عاوده النداء قائلا : « والله الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » البقرة آية : ٢٥٧ .

لاجرم أن هذا النداء سيجذبه وأفعاله إلى أعلى درجات الأنس لصاحب هذا النداء ، وسينقله إلى أصفى مشاعر الحب له ، ولسوف يزداد لديه هذا الشعور مع الزمن ، كلما زاد استبعاداً عن مرارة أيامه السابقة ، وانغماساً فى نشوة قربه إلى الله وممارسة العبودية له[1] .

ولذلك فإن الشريعة الإسلامية تقرر أن الإنسان ذو فطرة خيرة وأن الشر أمر عارض عليه فهو يولد سوياً فى تكوينه ، قال تعالى فى بيانه الإلهى : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وقال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون) سورة الروم ٣٠ .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : (ونفس وما سواها) : أى خلقها سوية مستقيمة على الفطرة[2] .

ويصف ابن القيم الإنسان فى تفسيره فيقول : « قلبه مضىء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ولكن لامادة له من نفسه فجاءت مادة الوحى فباشرت قلبه وخالطت بشاشته فازداد نوراً بالوحى على نوره

---

(١) البوطى محمد إسعيد أوربة من التقنية إلى الروحانية ، ص ٢١ وما بعدها ط دار الفكر .

(٢) تفسير ابن كثير الجزء الرابع .

الذى فطره الله تعالى عليه، فاجتمع له نور الوحى إلى نور الفطرة، نور على نور، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثراً، ثم يسمع مطابقاً لما شهدت به فطرته فيكون توراً على نور»[1].

والخير الذى فطر عليه الإنسان يتجلى فى النقاط التالية.

١ — السلامة من العيوب.

٢ — الاعتراف بعبودية الإنسان لخالق واحد.

٣ — أصول القيم الأخلاقية فهو يعرف أن الشكر خير محمود وأن الجحود شر مذموم.

٤ — أصول المعرفة العقلية فهو يعلم أن الأثر يدل على المؤثر وأن النقيضين لا يجتمعان.

٥ — أصول القيم الجمالية كحب الجمال والنظام والنظافة والخير. الخ.

٦ — الغرائز والضروريات التى تدفع الإنسان إلى حفظ النفس والنوع بالأكل والشرب والسكن واللباس، والزواج.

٧ — القدرة على التفكير والإبداع والاختيار، ومعنى الفطرة أن الله صاغ الإنسان وكونه وركبه بحيث لا يصلح له إلا الخير، وأن الله جعل معرفة ذلك مركوزة فى نفس الإنسان.

ومع ذلك فالإنسان له إرادة يستطيع أن يسير فى طريق الخير والشر ليسعد أو ليشقى.

وبناء على ذلك فإن تعليم الإنسان، ونقل المعرفة منه وإليه يجب

(١) تفسير ابن القيم ص ٣٧٤.

أن يكون فى إطار معرفى محدد، مصادره الوحى والوجود، على ماسبق ذكره[1].

ولنعد الآن إلى هذا التساؤل: كيف يمكن الاستفادة من المنهج القرآنى فى مخاطبة الإنسان فى ضوء المعطيات المعاصرة.

قررنا سابقاً أن القاعدة الكلية: إن الإنسان عبد لله عزوجل خلق لأجل هذا (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فدعوة القرآن عنيت بتحريره من العبودية للبشر أيا كان بل خصص القرآن الكريم سورة مستقلة للإشادة بهذا التحرير وجعله غير خاضع إلا لخالقه وخالق الكون، وهذه السورة هى سورة القصص، والمتأمل فيها يجدها تحدثت عن رجلين أحدهما استعبد الناس عن طريق الاستبداد السياسى والآخر استعبدهم عن طريق المال، والنتيجة التى أرادها القرآن بعد سرده لسيرة هذين الرجلين (ولا تدع مع الله إلها آخر، لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) فعلى الإنسان الذى خلقه الله وكرمه بنعمة العقل أن يستعين بعقله وحواسه لكشف حقائق الكون وسننه، وعليه أن يذكر عن طريق الدعوة بإعمال الفكر والنظر فى هذا الملكوت ليتحرر من عبودية مختلف النظريات والفلسفات الأرضية، وللتخلص من قيد المادة، فلا يكون عبداً لآله ولا لإنتاج ولا للمجتمع كحزب ومنظمات سياسية أو اقتصادية بل يكون عبداً لله الواحد القهار، فإذا ربى الإنسان عن طريق الدعوة فى ضوء معطياتنا المعاصرة على هذه التبصرة القرآنية، فإنه والحالة هذه مهما تذوق من نعيم الدنيا ألوانا، ومهما لاح له بريقها

(١) سلسلة المفاهيم «دراسة معرفية ونماذج تطبيقية ١/ ١٤ ط المعهد العالمى للفكر الإسلامى.

على البعد أو القرب فسيبقى كل من عواطفه وأفكاره ويقينه العقلى مشدوداً ومتجهاً إلى النعيم الأكبر الذى لاريب عنده فى قـدومه، وستظل نفسه مشرئبة إلى اليوم الذى يبلغه فيه النداء المبشر : (هـذا يومكم الذى كنتم توعدون) الأنبياء [١٠٣] وقوله (فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية) الحاقة [٢١—٢٤] فإذا دعى الإنسان بدعوة معاصرة بناء على هذه الحقيقة العقدية القرآنية فإنه سينطلق فى الدنيا مستخدما نشاطه فيها طبق نظام ربانى وضمن حدود تشريعية ، وذلك من أجل الوصول إلى إلى هدف عال إلى النعيم المقيم ، وبذلك يعرف مصيره بعد فنائه ، وعند هذه النقطة الهامة تختبىء الحضارات والفلسفات الجاهلية التى تقول : إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر .

وعلينا فى تقرير دعوة الإنسان أن نصدع الإنسانية بأن كل ماعلى الأرض من خير، وأن كل مافى باطنها من ذخر أداة اعمارة الأرض والمسج عباءة السعادة الإنسانية المثلى فوق جنباتها ، لكن الشرط الوحيد لذلك أن تكون هذه العمارة متفقة مع عقيدة الإسلام ، غير أن الكثرة من سكان الأرض لما كانت غافلة عن وظيفتها ومصيرها ، بعيدة عن عقيدة القرآن وبيانه أقبلت على الدنيا متمرغة فى ترابها وملذاتها مع أن الجدير بها أن تتأملها بعقولها .

فكان من جراء ذلك أن سعت الإنسانية إلى بناء المدن والحضارات المادية ، بدافع النهج النفسى والعشق المادى أكثر من النظر العقلى والتدبير الشرعى ، ولابد أن ينشأ من ذلك نزاع وخصام وجد قديماً وحديثاً ، أما العقيدة الحقة فتؤلف بينهما فى رحم من الطمأنينة والسكينة والوفاق .

(٥)

الأسس العلمية فى ممارسة الدعوة الإسلامية

إن ممارسة الدعوة لاتكون خبط عشواء بل لها أسس علمية يجب إتباعها وتتجلى هذه الأسس فى النقاط الآتية :

١ — الإقناع المنطقى ، وذلك إقتداء بالقرآن الكريم فى ما كان ينزل به ، فمنطق القرآن فى تشييد العقيدة النظر إلى موطنها بالعقل تارة وبالوجدان أخرى ، وأقرب شىء إلى العقل البداهة ، وأقرب شىء إلى الوجدان الحس .

ومن إحالة القرآن على الإقناع المنطقى قوله تعالى : (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) فالقرآن يحصر الفروض فى ثلاثة ، فإما أن يخلق الإنسان نفسه ، وإما أن يوجد من غير شىء ، وأما أن يوجده خالق ، وذلك على سبيل الاستقراء العقلى . ومن إحالة القرآن على الحس : (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) .

٢ — القدوة فى الدعوة ، وهنا باب من الأمر عظيم ، إذ ذلك يتطلب من صاحب الدعوة أو القائم بها أن يلتزم ظاهراً وباطناً بما يدعوا إليه ، وتأمل قوله تعالى : (قل آمنت بالله ثم استقم) فقوله (آمنت بالله) توجيه إلى الالتزام بالإعتقاد الباطنى ، (ثم استقم) توجيه إلى الإلتزام بالعمل ظاهراً ، فجمعت الآية بين الاعتقاد والعمل وإن المتأمل فى كتب الشريعة سيجد أن الشرط الأساسى فى الدعوة إلى الله أن يجعل الداعية نفسه وحظوظه وآماله خادما لدين الله ، لا أن يجعل من الدعوة والقيام بها مطية يمتطيها إلى حظوظه ومآربه .

إن الدعوة الآن وفى ظروفنا المعاصرة ومشكلاتنا المعقدة المتشابكة، تحتاج إلى دعاة مرشدين ربانيين كونوا معارفهم العقلية وتربيتهم النفسية فى رحم الابتعاد عن الشهرة والأنانية وحب الذات، عندما يكون هناك دعاة ربانيون ينبثق الإيمان سراجا وهاجا من قلوبهم فإن حال المدعوين سيكون أقرب إلى الرشاد.

وغنى عن البيان أول من اصطبغ بهذه التربية القرآنية فى الدعوة إلى الله إنما هو رسولنا محمد ﷺ، الذى كان يعلم المسلمين بأقواله وأفعاله كيفية التحقق بالإيمان باطناً وظاهراً، وانظر كيف اصطبغ الرعيل الأول من المسلمين بهذه التبصرة القرآنية ففتحوا الدنيا مشرقاً ومغرباً.

٣ — العمل الدؤوب فى سبيل نشر الدعوة والسلوك بها طريقاً لاحباً ممهداً، تجتمع فيه الجهود المبذولة هذا وهنا، إذ لابد أن يتحد العاملون فى المنهج والهدف فيسيرون فى الطريق متكاتفى الأيدى قد غضوا طرفهم عن الخلاف فتجاوزوه. شعارهم فى ذلك: لنتعاون فيما اتفقنا فيه وليعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه. مؤمنين بحتمية الخلاف الذى أدى إلى ظهور المذاهب لاختلاف النظر إلى النصوص فى وعائها الذى جاءت فيه وهو اللغة الحمالة، مما أفضى إلى تعدد الاجتهادات كل اجتهاد بمسنده، وليس ثمة إجتهاد ينقض اجتهاداً، فهكذا يوفر الوقت ويبارك الجهد ومن أدلج بلغ المنزل (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون).

قائمة المراجع

١ — أوربا . . من التقنية إلى الروحانية / د. محمد سعيد رمضان البوطى / دار الفكر / دمشق.

٢ — الإسلام ملاذ كل المجتمعات لماذا وكيف د. محمد سعيد رمضان البوطى. ط دار الفكر — دمشق.

٣ — بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية / المعهد العالمى للفكر الإسلامى / إشراف: د. على جمعة ود. سيف الدين عبد الفتاح.

٤ — تفسير المنار / محمد رشيد رضا / الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥ — التفسير القيم لابن قيم الجوزية / محمد حامد الفقى.

٦ — تذكرة الدعاة / البهى الخولى.

٧ — تفسير الحافظ ابن كثير.

٨ — الخصائص / ابن جنى / تحقيق محمد على النجار / الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨ — شرح المواقف / السيد الشريف الجرجانى.

٩ — فتح البارى فى شرح صحيح البخارى / ابن حجر العسقلانى.

١٠ — معجم مقاييس اللغة / ابن فارس.

١١ — المحاور الخمسة للقرآن الكريم / محمد الغزالى.

١٢ — منة المنان فى علوم القرآن / د. إبراهيم عبد الرحمن خليفة.

١٣ — منهج الحضارة الإنسانية فى القرآن / د . محمد سعيد رمضان البوطى / دار الفكر .

١٤ — المواقف . عضد الدين الإيجى .

١٥ — نشر الطوالع / المرعشلى .

١٦ — نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم / محمد الغزالى / دار الشروق .

١٧ — وحى القلم / مصطفى صادق الرافعى .

الفهرس

المجلد الأول

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥ — ٨
بقلم / أ . د / عميد الكلية ورئيس قسم والعقيدة الفلسفة	
١ — الشيخ مصطفى عبدالرازق وتيارات الفكر المعاصر	٩ — ٤٠
بقلم / أ. د / عبد المعطى محمد بيومى	
٢ — أبو المظفر السمعانى ومنهجه فى تفسير القرآن	١ — ١٣٢
بقلم / د/ السيد إسماعيل على سليمان	
٣ — الأعلام بما فى آيتى عمارة المساجد	١٣٣ — ٢١٤
بقلم / د / نايف بن قبلان بن ريف قسيان بن السليفى العتيبى	
٤ — من التخطيط الاقتصادى فى القرآن	٢١٥ — ٦٦٦
بقلم / د / فتحى محمد غريب	
٥ — آيتا الحبس والإيذاء من سورة النساء	٢٦٧ — ٣٤٦
بقلم / د / نايف بن قبلان بن ريف بن قسيان السليفى العتبى	
٦ — أقوال العلماء فى رواية الحديث	٣٤٧ — ٣٧٢
بقلم / د / محمد زكى عبد المجيد خير	
٧ — النسخ فى السنة النبوية المطهرة	٣٧٣ — ٤٤٠
بقلم / د / منصور على منصور سعد	
٨ — الوضع فى الحديث النبوى	٤٤١ — ٥٢٤
بقلم / د / عبد الله بن ناصر بن محمد الشقارى	

الموضوع | الصفحة

المجلد الثانى

٩ — عصمة الأنبياء عليهم السلام فى العهد القديم ٥٢٩—٦٠٨
بقلم / د / محمد عبد العزيز محمد عوض

١٠ — آداب الحوار فى الاسلام ٦٠٩—٦٦٠
بقلم / د / مصباح منصور موسى

١١ — تمسك الدعاة إلى الله تعالى بالقرآن الكريم ٦٦١—٧٢٠
بقلم / د / عبد الله بن إبراهيم اللحيدان

١٢ — التربية فى الإسلام ٧٢١—٨٤٦
بقلم / أ . د / أحمد عبده حموده الجمل

١٣ — إيمان مرتكب الكبيرة بين المثبتين والمنكرين ٨٤٧—٩٣٤
بقلم / د / جمال الدين حسين عفيفى

١٤ — منهج المتكلمين فى تقرير مسائل العقيدة ٩٣٤—١٠٤٠
بقلم / د / جمال سعد محمود جمعة

١٥ — العقل وأهميته فى الأسلام ١٠٤١—١٠٧٢
بقلم / د / جمال محمد منصور

١٦ — دعوة القرآن إلى العقيدة ١٠٧٣—١١١٠
بقلم / د / محمد سالم أبو عاصى

رقم الإيداع بدار الكتب
٦١٣٣ لسنة ٢٠٠١ م
فى ٥ / ٤ / ٢٠٠١ م